



جا حفا جديد

وكما يعود الحبيب إلى حبيبته فررت أن أعود إلى المكتبة.

كانت سعادتني كبيرة حين دخلت المكتبة ووقفت أمام الكتب أنظر إليها وكأني أنظر إلى ماضي حياتي. بصورة المختلفة من سعادة وشفاء. فإن لكل كتاب قصة بقلبي. صحيح أن كثيراً من هذه الكتب لم أقرأها كلها ولا سيما ما كان منها مرجعاً. ولكنني قد



محمد سعيد المولوي - سورية

قرأت جانباً منها. ولي على حواشيتها تعليقات وشروح ورددود تشهد على ذلك.

أحسست وأنا واقف أمام المكتبة أنني أمام مشكلة عويصة تحتاج لحل يحتاج إلى صبر شديد. وأنا قد أضعت الصبر مع مرور الأيام وأصبحت عاجولاً. وقلت لنفسني: ليكن تعاملني مع المكتبة تعاملًا معقولاً لا يرهقني ولا يتعبني. فأبدأ بترتيبها شيئاً فشيئاً وحين يعن لي كتاب يستهويني فإني أمضي في قراءته حتى أمل منه. وحينذاك يأخذ مكانه الجديد في المكتبة. وأنا بذلك أكون قد أسطدت بضعة عصفير دفعة واحدة. فإني أكون قد تحاشيت الاحتكاك بزوجتي والاصطدام، وقرأت ما يحلو لي من الكتب. ونظمت المكتبة.

وبدأت السير على هذه الطريقة فكنتي وجدت نفسي أمام عقبة. فبعض الكتب يتألف من أكثر من جزء. وما أنذا أقرأ في الجزء الأول. وأحتاج إلى الجزء الثاني فالنوضوع بينهما مترابط متماسك. ولكن أين هو الجزء الثاني أو الأجزاء الباقية. لا ريب أنها تائهة في خضم هذه الفوضى!!

كان لعطف زوجتي علي. وقتها لما أصابني. وحنوها علي. ما جعلني أفكر في تغيير سلوكي وإصلاح معاملتي. ومحاولة تخفيف التوتر بيني وبينها. فليس أقل من أن أمضي ما بقي من العمر في راحة وسلام. لكن أمراً واحداً كان يحد من اتخاذي القرار وهو أنني لا بد أن أدخل المطبخ. وإذا دخلته فإن المشاكل ستولد وينمو كبيرها وصغيرها.

وفكرت ملياً وقتها: إني رجل. والرجل يجب أن يكون صلباً قوياً وألا تتلاعب به العواطف والأهواء. فكم يجدر بي أن أقرر ألا أدخل المطبخ نهائياً وليكن لزوجتي مملكتها ولي مملكتي. ولكن أين هذه المملكة؟؟ وفكرت هذه المملكة في وجهي وهي تصيح: ألا تراني؟؟ وقتها يا سبحان الله هذه مملكتي قد هجرتها قبل أن أحال إلى التقاعد وقد علاها الغبار وعستها الفوضى. فأبأن التدريس كنت أتناول كتاباً من هذا الرف وآخر من الرف الثاني فلا أجد واحداً منهما إلى مكانه. حتى تداخلت بعضها في بعض. واختلطت الموضوعات فالشعر دخل في النثر. والتراجم زاحمت التاريخ. والنحو جاور الفقه. والسيرة أخذت لها مكاناً إلى جانب كتب التفسير أو الأصول.

ولقد كان من أساني أن أحال على التقاعد لأنتزع للمكتبة فأرتب كتبها حسب موضوعاتها. وأطالع وأقرأ في هذه الكتب التي مضى على بعضها أكثر من ربع قرن ولم أنظر في حرف منها.. إن الكتب ليست زينة بقدر ما هي معين معرفة وعلم وأدب. ولقد ارتكبت خطأ كبيراً حين غفلت عن هذه المكتبة. وأضعت أوقاتي فيما لا طائل تحته

وما وجدت حلا إلا أن أبدأ التعرف على الكتب كتابا كتابا فأجعل كتب الفقه في جانب فإن مر معي كتاب تائه ألحقته برفاقه. وأجعل كتب التفسير في جانب آخر. وكتب الحديث في جانب ثالث. وكتب السيرة والأدب والنقد والشعر... إلخ في أكوام مجتمعة حسب الموضوع. وكان ذلك يقتضي مني إفراغ المكتبة خزنة خزنة من كتبها. ووجدتني أمام أكوام من الكتب يتيه معها العقل. ولا يزال بعض الكتب في الرفوف العليا من

الخزانة وهي تحتاج إلى إحضار وفرز وترتيب. وقتها ما دامت المعركة محتدمة فلأَمْضُ فيها إلى نهايتها، ولأنزل الكتب من الرفوف العليا. وأصنع بها ما صنعت بأخوانها.

وأحضرت السلم الحديدي فأسندته إلى الخزانة من غير أن أفتح زاويته وأثبت ضلعيه. فالتفت اليافية فثيلة وأنا أحس بنشاط غير عادي... وسرعان ما سأنزل بها إلى الأرض.

صعدت السلم. وبدأت بتناول بعض الكتب والرمي بها على مرتبة قريبة. وبطيت بشية في الرفوف العليا من الخزانة فتطاوت لأحضرها وكان السلم قصيرا فبالأ به ينزلق إلى الورا وبصورة لا شعورية وبحس الحرص على السلامة وبقاء الحياة أسكنت بالخزانة. وكان السلم لا يزال ينزلق. ونهاوت الكتب فوق رأسي وعيني وكسر زجاج نظارتي. ورحمني الله فلم يدخل الزجاج في عيني. وفي الوقت الذي كنت أنزلق مع السلم وتتهاوى الكتب فوقي كان زجاج الخزانة يتكسر ويتناثر فوق جسدي. وكان المسأل أخيرا أن وجدت نفسي ملقى على الأرض والكتب فوقي وحولي. والزجاج يؤانسني والخزانة جالمة على صدري. وزوجتي تصرخ وتبكي وتولول... وتحاول أن تخلصني مما أنا فيه. ولم تجد لها عونا سوى الجيران الذين أسرعوا لمساعدتي. وكانت لي زيارة جديدة إلى المستشفى لنضميد بعض جروح الزجاج. وبعض الكدمات. وأجراء بعض الفحوصات خشية الإصابة بارتجاج الدماغ!

وخرجت من المستشفى وزوجتي تقول: الحمدلله أن الأمر لم يكن أعظم. وأنا أقول:
يا فرحي أنا متقاعد!

